حوار مع صديقي المعماري في فلسفة التراث والحداثة
في التعليم المعماري والبحث العلمي

د. وليد أحمد السيد
جامعة لندن - (UCL) دكتوراة في فلسفة العمارة من

قال صاحبي: " كما تعلم فالعمارة العربية يرفدها قطاع التعليم بشكل كبير, ومن هنا تكمن أهمية التدريس الأكاديمي وأهمية تخريج جيل متعلم من المعماريين على أسس منهجية رصينة, وأنا أعلم أنك رجل معماري أكاديمي, فمن خلال تجربتك في التدريس والعمل، فما هو مستقبل العمرة العربية أكاديميا وعمليا من وجهة نظرك إذن؟؟

قلت لصاحبي: "باختصار شديد هناك محاور أساسية يمكن رصد صيرورة العمارة بها وبالتالي التنبؤ بوجهتها واستشرافها للمستقبل, هذه المحاور هي: العلاقة مع الذات – كيف ننظر للموروث الفكري والحضاري, والعلاقة مع الآخر – مدى التبعية والتداخلات الثقافية, والتعليم المعماري ومساحة التفكير المستقل عند الفرد – ومدى غلبة النص على العقل أو العكس, وآليات ومنهجيات وقراءة العمل المعماري, وكذلك واقع العمارة كمهنة وعقدة "المهن النبيلة" التي تنتج متعلمين ورجال في غير مكانهم المناسب. الإستسرسال في كل واحدة لإعطاء الإجابة لا يتسع له المقام هنا, لذا سأكتفي بهذه النقاط العامة مع ثقتي بذكائك".

لكن صاحبي لم تعجبه هذه الإجابة المقتضبة والمختصرة فأردف سريعا بسؤال ذي علاقة بالأول ، كيف ترى مستوى التعليم (فقال:" لكن بحكم وجودك في مدرسة غربية للعمارة (جامعة لندن المعماري العربي وكيف يمكن تطويره؟

ولم أجد بدّا من الإجابة بإسهاب أكثر فقلت:" هناك خلل أساسي في مستوى التعليم العربي الذي كجلمود صخر حطه السيل من عل", وإما "غالبا ما يتخذ أحد مظهرين: إما تلقيني عقيم جامد "هلامي" إنسيابي مطلق بما يدع الطالب حائرا ماذا يفعل وأين يذهب. ليس هناك حل وسط في نظام يقوم على زرع الأسس والمبادئ وتشجيع الحوار لا "الإستماع والتلقين" وتنمية المواهب المتفاوتة بين الطلبة مع التوجيه المستمر والمضني للأستاذ المخلص. في كلتا الحالتين يتمتع بعض الأساتذة في وبما يقدمه الحرف (د.) من عجائب الراحة "بعض معاهد العالم العربي للأسف "ببرجوازية أكاديمية

"والبطالة الأكاديمية المقنعة" إذ أن صاحب هذا الحرف هو (دكتور مبجل) يعلو فوق المساءلة بعلمه أبرز ما –الجم الغزير وحكمته الثاقبة. لا يكاد بعضهم يفعل شيئا يذكر ما خلا محاضرة مملة مكررة تعلن هو"الإستخفاف" بعقول بعض العقليات النابغة من الطلبة الجادين أمامه– والتي يمكن للطلبة أخذها من طلبة السنة السابقة أو طباعتها وتوزيعها دون الحاجة للنوم لساعة من الزمن. وبعضهم ينشغل بجزئيات على أهميتها تتمثل بتسجيل الحضور والغياب لمعاقبة "شخصية" لطلبة قد لا يعجبه شكلهم. أوالإستمتاع بتبجيل بعض الطلاب له "خوفا من سطوة غضبه وانتقامه في تقييم علاماتهم".
من ناحية أخرى يعاني النظام التعليمي العربي – مع التقدير والإعتذار من القلة القليلة المخلصة يتمتعون" بميزات "عدم الكفاءة" أو "عدم الإخلاص" أو "وذات الكفاءة– من وفرة المدرسين الذين "عدم إدراك أمانة التدريس ومشقتها" مما يترك الطالب تحت رحمة الأقدار. جانب آخر من المشكلة هي بيروقراطية التعليم والمشاكل "الشخصية السخيفة الصبيانية" بين بعض أعضاء هيئة التدريس في غياب أنظمة الردع والعقاب واستفادة البعض من "علاقاته الخاصة" التي تسوغ له تصرفاته "الرعناء" مما يؤثر سلبا وبشكل كبير على أداء بعض المدرسين الكفؤين والمخلصين وعلى أداء الطلبة. كيفية التطوير تكمن في كلمات قليلة كلنا نسمع بها في العالم العربي ولم نجد لها تطبيقا: الرجل المناسب في المكان المناسب, مع نزع الصلاحيات المطلقة الموجودة للمدرسين وإعادة إيجاد نظام المراقبة والتفتيش المفاجيء أحيانا والمطبق في المدارس الإبتدائية وإدخاله للجامعات لتحسين أداء المدرسين ومراقبة سلوكهم. وفي التعليم العالي وبعض الجامعات فكما يطلب من الطالب الذي يود الإلتحاق بجامعة ما من تقديم شهادات الكفاءة الأكاديمية والعملية وحسن السيرة والسلوك, كذلك وبالمثل من حق الطلبة الإطلاع على نشرات دورية تصدرها الجامعات بأداء المدرسين أنفسهم وسلوكهم الشخصي والأكاديمي؛ مثلا معدل السنوات التي تتطلبها الطالب ليتخرج مع ذلك المشرف أو ذاك, وسهولة أو صعوبة التعامل معه من خلال أحصائيات دقيقة وأمينة تعدها الجامعة من خلال الطلبة السابقين الذين درسوا مع هذا المشرف أو ذاك. هذا هو الطريق الوحيد للأمام كي يبقى الأستاذ تماما مثل الطالب تحت الضوء, ولكي يعرف الطالب ما هو مقبل عليه تماما كما يريد الأستاذ أو الجامعة أن يعرفان ما هو مقبل مع الطالب بطلب تاريخه الأكاديمي والشخصي.

ثم أكملت قائلا:"والحال في جامعات بريطانيا والغرب هو أنه يتم إجراء تقييم سنوي لأداء الجامعات نفسها وتنشر تقارير وإحصائيات سنوية بترتيب هذه الجامعة أو تلك بنظام تقييم بالنقاط. أنا طالبت في إحدى الإجتماعات مع المسؤولين بجامعتي بلندن من أن يشمل ذلك الأساتذة أيضا لوضعهم تحت المجهر للطلبة المحتملين ولوضع حد لمعاناة غير منتهية كما حصل لزملاء وزميلات لي لا.

يكفي أن يكون الأستاذ مبدعا ولامعا في مجاله الأكاديمي وصاحب اسم أكاديمي جذاب للطلبة, يهم الطلبة أيضا ويؤثر في حياتهم سلوكياته الشخصية ومزاجه وأمور مثل معدل سنوات تخرج الطلبة تحت إشرافه وكم يستغرقه الوقت لقراءة الفصل من الرسالة التي يقدمها الطالب له. أنا شخصيا عانيت– وكذا معظم الطلبة الذين أعرفهم– من هذه المشكلة. قدمت لمشرف أطروحتي للدكتوراة فصلا واحدا من فصول الرسالة التسعة في شهر تشرين الأول فعاد لي بملاحظاته بعد 9 أشهر بالضبط إذ كان مشغولا بكتابة أوراق لمؤتمرات, وكأن قراءة الفصل الواحد هي – وللسخرية– عملية من الوقت مهدرا بعدم القراءة من قبل المشرف %حمل ومخاض وولادة. في حالتي كان أكثر من 70 بوقت معقول. لو أن هناك تقييمات دورية منشورة للأساتذه كما أقترح فإن أمام مثل هؤلاء المدرسين حلين لا ثالث لهما: إما أن يحسن أداءه أو أنه لن يجد طلبة تحت إشرافه في العام المقبل.

وبالمناسبة, أنا لا أحب فكرة المقارنة والمفاضلة بين التعليم العربي وبين جامعة لندن مثلا أو غيرها. المسألة ليست من هو أفضل إنما القضية هي من يطبق نظاما أفضل. العقليات العربية بخير وتضاهي العالم بأسره إن توافرت لها الإمكانيات المناسبة للتنافس, كل ما نحن بحاجة اليه هو وعي بالمشكلات يرافقه رعاية وتوجيه من صناع القرار مع إبقاء الجميع تحت المساءلة والمحاسبة, هذه هي الطريقة الوحيدة للأمام. وفي اللحظة التي تعطى فيها الصلاحيات المطلقة – سواء في العالم الثالث أو السابع أم في الغرب الديمقراطي– تشيع "الدكتاتورية الأكاديمية" ويتردى مستوى الأداء. ما يعجبني في "الغرب" فعلا هو أن الرجل المناسب, عموما وغالبا, في المكان المناسب وهذا قائم على التنافس والجد المستمر والإنجازات كي يظل أحدهم بمنصبه, إذ ليس هناك "تبحيط" واسترخاء على "الكراسي" للأبد – كما هو عليه الحال في معظم معاهدنا العربية ومواقعنا الأكاديمية للأسف!

قاطعني صديقي قائلا:" كلامك واقعي وصحيح, علي أن أعترف بذلك, والبحث العلمي للأسف ليس أفضل حالا!"

فقلت:" نعم, على مستوى البحث العلمي والأكاديمي هناك مفارقات أساسية بين الإثنتين تراوح بين السلبية والإيجابية لدى كل منهما ولنبدأ بالجامعة العربية التي تسود فيها نوع من البيروقراطية والإرهاصات اليومية السطحية التي تحول دون الإبداع على مستوى الطالب أو الأستاذ, والتي لم أجدها في جامعة لندن أو في الغرب. ففي الغرب يعني المقعد الأكاديمي بالنسبة للأستاذ البحث العلمي الدؤوب والتفرغ الكامل له بحيث يصبح نمط حياة مهنية وأكاديمية وبحيث ينتج الأستاذ وعلى

مدى عشرين أو ثلاثين عاما موسوعة بحثية في مجاله أو يؤسس لنظرية ما قبل تقاعده. والدوافع والحوافز لذلك كثيرة تتنوع بين المادة والحفاظ على الكرسي بالجامعة وبين حب البحث وتحقيق الذات. وهذه للأسف تكاد تكون معدومة إلا ما ندر في معاهد العلم العربية إلا للترفيع العلمي وزيادة الرتبة والراتب أو خوفا من الفصل من الجامعة في حال مخالفة قوانين البحث والترقية. البحث في الغرب منهجي دؤوب وله وقت يومي مخصص في الصباح كل يوم ودون مداخلات يتفرغ خلالها الأستاذ للنشر والتأليف والتأمل والتدبر, ويعلن الأستاذ لتلاميذه صراحة أنه لا يريد أي مراجعة لمكتبه خلال وقت البحث العلمي في الصباح مما قد لا تجده في بعض معاهد العالم العربي للأسف!

وبعد هذه الإجابة ساد صمت لبرهة قصيرة رشفنا خلالها كل من كوبه ومد كلانا نظره عبر النهر الذي تتراقص أمواجه تحت أشعة الشمس اللامعة على سطحه. وقطع حبل الصمت صديقي بسؤاله الذي قصد منه الإسترسال في مناقشة الفكرة الأخيرة حول التعليم المعماري فبادرني قائلا:" برأيي أن التعليم المعماري بحاجة إلى تطوير في بعض معاهدنا, وقد رأيت مؤخرا كيف دخل الكمبيوتر الكثير من جامعاتنا وأصبح جزءا مهما من عملية التصميم والإخراج والقدرات التي يجب أن يكتسبها الطالب المعماري قبل تخرجه, فأرجو أن لا يكون بنظرك هناك أي تعارض بين قدرة المعماري على الإبداع وبين استخدام الحاسب الآلي فى التصميم, وإلا فإنني سأبدا بالشك أنك من يمين اليمين المتطرف لشلة التراثيين!

وأمام هذا الإتهام المبطن ضمن السؤال, ابتسمت لصديقي ثم قلت:" لا تعنيني هذه النعوت والتسميات ولا تخيفني بقدر ما يهمني التعبير عن رأيي. ورأيي ببساطة ومن مشاهداتي وخبرتي الأكاديمية أعني أنني عشت وعملت في حقبة ما قبل انتشار الكمبيوتر – "والعملية كمعماري مصمم "مخضرم وبعده – أرى أن دخول الكمبيوتر في العملية الأكاديمية والعملية للعماريين ينبغي أن يكون محدودا في مرحلة وسيادي في مراحل أخرى. وبلغة أخرى مفهومة أكثر, أنا أرى أن مرحلة تكوين الفكرة المعمارية ينبغي أن تعتمد على الرسم اليدوي واستخدام الإسكتشات بالمفهوم التقليدي الذي اعتدنا عليه, فهي المحرك الذهني والتواصل العضوي بين العقل واليد للتعبير عن الفكرة والإبداع والفن. أما مرحلة استخدام الكمبيوتر فهي لتظهير الرسومات وتسهيل آلية استرجاعها وتخزينها وإعادة التعديل عليها بصورة أسهل مما مضى, وهذا لا يمكن إنكاره!

لاحظت تراجع ,لكنني ومما وجدته في حياتي العملية, ومن خلال معماريين ناشئين عملوا معي القدرات الفنية والتخيلية عند معظمهم إذ أصبح الإعتماد على الكمبيوتر كبيرا جدا حتى في مرحلة

التصميم. وهذا كان حافزا وعاملا على إنتاج تصاميم "رديئة" جدا وميكانيكية وخالية من أي مظهر فتجد جيلا كاملا من المعماريين الشباب اليوم يحسن استعمال الكمبيوتر وبرامج .من مظاهر الإبداع الإظهار ورسم المبنى بأبعاد ثلاثية ورسم مناظير داخلية وخارجية وتصوير متحرك للمبنى وإضافة العناصر المزخرفة وغيرها مما يجذب الإنتباه للتطورات التقنية والقدرة على الإظهار الميكانيكي بما قلص الفوارق الفنية بين المعماريين بدرجة عالية. وبهذا أصبح الجميع سواسية في القدرة على تقديم المخططات المعمارية بشكل فني ومبهر – لكن ذلك وللأسف أصبح على حساب الفكرة المعمارية. والأخطر من ذلك هو غياب الإبداع, إذ أصبح يمكن رسم مدينة كاملة من وحدة صغيرة مكررة تم إعطاؤه مدينة كاملة بالرياض ,وبوقت قياسي. وقد شاهدت ذلك في مكتب معماري بريطاني لتطوير وحدات سكنية ومرافق ترفيهية. الناتج كان عبارة عن عمارة سكنية واحدة تم تكرارها مئات المرات, ورسم مرافق عامة ومتنزهات ومجمعات تجارية كلها تخلو من الإبداع والإبتكار. وبالنتيجة أصبح المكتب المعماري اليوم عبارة عن مجموعة من أجهزة الكمبيوتر وثلاثة موظفين واحد منهم خبير ببرامج الكمبيوتر وبرنامج "ثري دي ماكس" – وأصبح كل ذلك التقدم الذي تنادي به يا صديقي يكرس "العولمة المعمارية" على حساب الإبتكار والإبداع التقليدية سواء في الجامعات أو المكاتب الهندسية. فهل هذا ما ترمي إليه بالحداثة والتطور؟ هل هذا تطور أو تخلف في الأداء المعماري؟ وللحوار بقية.

هذا المقال هو جزء من فصل في كتاب للمؤلف بعنوان (قراءات فلسفية في عمارة المجتمعات - العربية بين التراث والحداثة)

وليد أحمد السيد
لندن في 11 شباط 2010